ختام اليوبيل القسطنطيني وانتصار الصليب

بقلم حضرة المنوري جرجس البستاني مدرّس الخطابة في كليّتنا

عزَّ الصليبُ بقسطنطينَ وانتصرا ... وادركت آلهُ في ظلّهِ الوطرا
فهو درُّ مليكٍ أنبتَتْ يدهُ ... في روضة العُرْفِ غصناً لم يزل نضرا
لئن طوتْ جسمَهُ كفُّ الردى فلهُ ... ذكرٌ يتمُّ بآفاق العُلى عَطِرا
هي المآثرُ تُحيي ذكر صاحبها ... حتّى يعمَّ شذاهُ البدوَ والحضَرا
مهما تعاقبت الأجيال وانصرمت ... ففضلُهُ خالدٌ في الناس ما اندثرا
ان الكنيسة في تاريخها كتبت ... بالفخر آثاره الغرّاء فازدهرا
أحيتْ بيوبيلهِ ذكراهُ ناشرةً ... بين الملا أثرًا في قلبها حُفِرا
تلك المفاخر كنزٌ لا نفادَ لهُ ... في صدرها من قديم العهد قد ذُخِرا
مفاخرٌ جعلت من فوق هامتهِ ... اكليلَ مجدٍ بكفِّ الفخر قد ظُفِرا
فالناس في مهرجانٍ يعقدون لهُ ... بين الملا حفلاتٍ عرْفُها انتشرا
والدين قد قرَّ عيناً واغتلى فخرا ... حيّاً كركباً في أفقهِ سفرا
فطأطئوا يا عداةَ الدين هامكمُ ... واشكوا فظائعكم لا البخت والقدَرا
فكم سفكتم دماء الابرياء ولم ... تُبقوا لهم بينكم عيناً ولا اثرا
وكم نشطتم الى اخناء فضلهم ... فكان ان غالبت رياهمُ الزُّمَرا
وكم سعيتم الى إفناء دينهم ... فزال سعيكمُ بعد العنا هدرا
ألَا انتدبوا تعباً قاسيتموه بلا ... جدوى وايّامَ عزٍّ قد مضت بطرا
واستقبلوا من تباريح النوائب ما ... يُدمي الفؤاد ويكوي السمع والبصرا
فما جنى عزّلاء الابرياء من الآ ... ثام حتى جعلتم عيشهم كدِرا
أعاتكم ان يُميطوا عن مزاعمكم ... ستراً فيلحظكم اهل الهدى شزَرا
ام ساءكم ان تروا دين المسيح على ... عرش الجلال يباهي الانجم الزُّهُرا
ويجعلُ الكفر من حوليه منهزماً ... يبني له تحت اطباق الثرى حُفَرا
ان كنتمُ في ارتيابٍ من ديانتكم ... فغادروها لئلّا تقحموا الخطرا
وان تكونوا على الحقّ المبين فلِمْ ... حاربتمُ ملّةً لا تعرف الضررا

انَّ الدياميسَ والأنفاق ناطقةٌ بجوركم ان طويتم انتمُ الخبرا
فكم اقاموا بها تحت الظلام وما رأت عيونهمُ شمساً ولا قمرا
حذارَ ان توسعوا ألبابهم غُصَصاً او تجعلوها لاطراف الفنا جزرا
فالارضُ في عهد نيرونَ التي غدت مجازرًا حولها بحرُ الدماء جرى
عامت بها جُثث القتلى يزقها وحشُ الفلا مُنشباً في صدرها الظُفُرا
والنار تقذف من احشائها حمماً وقلب نيرونَ قاسٍ يُشبه الحجرا
قد كان يختال فخرًا فوق مركبةٍ مفكهاً بضحايا جوره النظرا
فأدبتْهُ يد العلياء عاجلةً لعصبة الظلم في تأديبه عبرا
ألا ارعَوُوا يا دُعاةَ الكفر وارتدعوا واخشوا عقاباً عنيفاً يورث الحسرا
لا تحسبوا انَّ شعب الله قد لعبتْ به ايادي الفنا او ذكرهُ دُثِرا
فانما دمهُ المسفوحُ يجعلهُ في كلِّ ناحية أنمى الورى ثمرا
كحبَّة البرِّ بين التُّرب قد دُفنت فانبتت سُنبلات خلتها دُرَرا
هو المهيمنُ يرعاهُ بسُنَّتهِ م اليَقْظى ويدفع عنهُ الذنبَ والشررا
كم صدَّ عنه صروفَ الدهر طاحنةً فلم يَعُد يختشي من دهره الغيرا
لم يخلُ في كل عصر قطُّ من نُذر او من حُماةٍ تقي اقدامهُ الغِرَرا
صبَّت على رأسهِ ايدي العدى يحناً سوداء لو مسَّت الجلمود لانفطرا
فكان أن سخَّر المولى انزجته مَلَكاً ابيًّا بنار الغيرة استعرا
هو الخضنفر قسطنطين مَن ضغرت يداه للدين تاجاً زاده خطرا
بدا لهُ في العلى رسم الصليب على اطرافهِ كلماتٌ تدهش الفكرا
«سِرْ للوغى واحمِ قومي من عداتهم واجعل لواك صليبي تحمِ منتصرا»
فكان أن حطَّم الاصنام متَّبعاً ربًّا حكيماً جليل الشان مقتدرا
وهبَّ للحرب صنديدًا يظلّلهُ بندُ الصليب فخاض النقع وانتصرا
وعاد يحمي النصارى منصفاً لهمُ من العدى جاعلًا أيامهم غُرَرا
واختار «مكسنسُ» نهر «التِبر» ملجأه وذاق فيه الردى من بعد ان دُحرا
يا حبَّذا الملك قسطنطينُ من ملكٍ اولى النصارى جميلًا عرفهُ نُشرا
بفضله أُطلقوا من سجنهم وغدوا لا يوجسون اذا ما سيَّحوا حذرا

لولا الصليب تذاقوا الصاب عرفهمُ ... وبات شاهمُ في الارض منتثرا
لا زلتَ يا ايها المصاوب ملجأنا ... من البلايا اذا صرفُ الزمان عرا
لأنت سارتنا في وقت كربتنا ... وانت معتلنا إن حادثٌ غدرا
فلا تدع ظُلُمات الغي تحجب عن ... اذهاننا نور رشد فيك مزدهرا
فلا سلاح لنا الّا الصليب اذا ... ما سدَّدوا نحونا الخطيَّةَ السُّمُرا
فانهُ تِرْسُنا في كل معترك ... حتى نقلَّ به الصمصامةَ الذكرا
وهو الدواء لنا ان نابنا سقمٌ ... والموردُ العذب منهُ السعد قد فُجرا
وانهُ البلسمُ الشافي اذا طعنوا ... قاربنا بجراب تخرق الجدرا
فلا نرى عنه في دار الفنا شغلا ... فمن جوانبهِ نبعُ العزا انفجرا
ألا استقوا كأسكم من صدره تجدوا ... هذي الحياةَ نعيماً لا يرى كدرا
وفاخروا بصليب طالما افتخرت ... به الملوك وقد نالت به الظفرا
يا باريَ الخلق رفقاً بالألى التجأوا ... الى حماك ليقضوا في التُّقى العُمُرا
واجعل بجنَّتك العليا مقامهمُ ... ليجتنوا من ذُرى افنانها الثمرا
ان الصليبَ لواهم حيثما اتجهوا ... وهم يحيُّونهُ الآصال والبُكَرا
ما زال في ظلهِ النيرون جحفلهم ... لا يرهبون عدوًّا قلَّ او كثرا
ان العداة تمادوا في غوايتهم ... ولم يبالوا بسبِّ للعدى قهرا
دعهم يبيدوا ببيداء الضلال وفي ... عيونهم ظُلُمات تجلب الحيَرا
هم آثروا الغيَّ واختاروا جاهلهُ ... من بعد ما ملئت اقطارهم نُذُرا
يا رباهم يوم تأتي الارضَ محتكماً ... فيهم وتقذفهم بين الأظى زُمَرا
حتى اذا لعبت نار الجحيم بهم ... ودُّوا لو انهمُ لم يخلقوا بشرا
يا بؤس للمرء ان اغضى نواظرهُ ... عن الصليب ولم يجعلهُ مصطبرا
فاسعد الناس من كان الصليب له ... شعاراً يجيء به يوم الجزا مفتخرا